قضايا الهجرة والتدفقات

بين عقل المفكر الاجتماعي وعقل الباحث الاجرائي

محسن كمالة[†]

لا أدري لماذا انتابتني حيرة إبستيمولوجية وأنا أطالع برنامج مركز الدراسات الدولية للأمن والهجرة والتدفقات، المتضمّن تنظيم ندوات دولية ذات صلة بالبراديغمات التي يشتغل عليها المركز، وبرمجة أيام دراسية وورشات عمل، وتنظيم دورات تكوينية لفائدة طلبة الدكتوراه، فضلا عن إعداد تقارير دورية تحليلية في مجالات الأمن والهجرة والتدفقات.

وتُعبِّر الحيرةُ الإبستيمولوجية هنا عن حالةٍ من الشك والتردّد يعيشها كلُّ باحثٍ بصدد تحديد طبيعة المعرفة التي يمكن توظيفها في دراسة الظواهر الاجتماعية، كالهجرة والأمن والتدفقات: أهي معرفةٌ نظريةٌ تأمليةٌ تسعى إلى بناء المفاهيم والنماذج التفسيرية–التأويلية، أم معرفةٌ إجرائيةٌ تستند إلى البحث الميداني، وتحليل المعطيات، وتقييم السياسات العمومية؟

وهنا يُطرح السؤالُ الأعمق: هل يحتاج مركزُ الدراسات الدولية للأمن والهجرة والتدفقات إلى نخبةٍ تحمل عقلَ المفكّر الذي يميل إلى التجريد، ويركّز على البعد التأمّلي–الفلسفي للظواهر الاجتماعية، سعيًا إلى بناء المفاهيم، وتوليد المعنى، وتفسير البُنى العميقة لبراديغمات الأمن والهجرة والتدفقات وما يجاورها من مفاهيمَ متّصلة بها، وذلك في إطارٍ منهجيٍّ واضح؟ أم أنّه في حاجةٍ إلى صفوةٍ تحمل عقلَ الباحث الإجرائي، المنشغل بكيفيات جمع المعطيات والبيانات، والاختيار بين تقنيات وأدوات التحليل، وتفسير النتائج الميدانية، بغية تقييم السياسات العمومية المرتبطة بحقول الاشتغال السالفة الذكر؟

بين عقلِ المفكّر الاجتماعي وعقلِ الباحث الإجرائي، يتيح تصوّرُ عالم الاجتماع الأمريكي رايت ميلز، من خلال مفهوم «الخيال السوسيولوجي»، تجاوزَ هذا التقابل. ففي كتابه الخيال السوسيولوجي، يشير إلى أنّ هذه الإشكاليات طُرحت منذ بدايات تطوّر العلوم الاجتماعية والإنسانية، حيث "ارتبطت بالنزاع الطويل حول طبيعة العلم (...) الذي انتهى بالاعتراف بوجود أنماطٍ متعدّدة للعمل في العلوم الاجتماعية، منها دمجُ المشكلات الكبرى والعمل النظري في القرن التاسع عشر مع تقنيات البحث السائدة في القرن العشرين"(Mills, 1959, p. 119) .

ولعلّ ميلز، وهو يستعرض الجدالَ الإبستيمولوجي الذي اكتسح الساحةَ العلمية والأكاديمية في عصره، يبرز كذلك موقفَه الداعي إلى ضرورة الربط بين التحليل البنيوي للظواهر الاجتماعية والتجارب الملموسة للفاعلين، بما يفضي إلى دمج العمل النظري بالبحث الإمبريقي. ومن هذا المنظور، تغدو فعاليةُ مركزنا البحثي رهينة بقدرته على تحقيق التكامل بين هذين البعدين في إنتاج المعرفة.

وعلى هذا الأساس، لا يقتصر دورُ مركز الدراسات الدولية للأمن والهجرة والتدفقات على جمع المعطيات أو الانشغال بالتنظير المجرّد، بل يتمثّل في فهم الديناميات المركّبة التي تحكم هذه الظواهر، عبر تفاعلٍ مستمرّ بين بناء

[†] محسن كمالة، باحث، حاصل على شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع، تخصص سوسيولوجيا الهجرة والتعددية الثقافية والدينية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة.

Scanné avec CamScanner

المفاهيم وتحليل الوقائع. ولا شكّ أنّ **رايت ميلز**، من خلال هذا التصوّر، يوسّع «خيالنا السوسيولوجي»، بما يتيح لنا أن نؤسّس، داخل هذا المركز الفتيّ، ثقافةً علميةً قادرةً على جعل أفراده "ذوي جوهرٍ أسمى" (آلان تورين، 1997، ص 215)، أي فاعلين في إنتاج المعرفة العلمية وصياغة المعنى داخل الحقول الاجتماعية بمختلف تفرّعاتها: النفسية، والقانونية، والاقتصادية، والثقافية، والسياسية على النحو الذي يتصوّره ألان تورين (Alain Touraine).

في الختام، ونحن نتحرّر من حيرتنا الإبستيمولوجية، أو نكاد، يمكن التأكيدُ على أنّ تجاوز هذه الحيرة داخل المؤسسات البحثية لا يتحقّق بالمفاضلة بين العقل التأمّلي والعقل الإجرائي، بل بإدراك تكاملهما بوصفهما شرطًا لإنتاج معرفةٍ علميةٍ قادرةٍ على تفسير التحوّلات الاجتماعية المرتبطة بقضايا الأمن والهجرة والتدفقات على المستويات الوطنية والإقليمية والعالمية.

المراجع:

1. آلان تورين، نقد الحداثة، ترجمة أنور مغيث، المشروع القومي للترجمة، القاهرة ،1997.
2. C. WRIGHT MILLS, THE SOCIOLOGICAL IMAGINATION, With a new Afterword by TODD GITLIN, First published by Oxford University Press, Inc., New York, 1959.

Scanné avec CamScanner